(17) أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما -

يطلق عليه لقب أصغر قائد في الإسلام، فقد جُبل[1] على حب الجهاد فهو يسري فيه سريان الدم في الشرايين، وهو الحبّ ابن الحبّ أي المحبوب ابن المحبوب. إنه أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما - يعرف فضله وشرفه الصحابة الكرام، أمثال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصحابة جميعًا يعرفون له هذه المكانة في قلب النبي ﷺ، ولذلك فقد وقع اختيارهم عليه ليكلم النبي ﷺ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، هيا معًا نقترب أكثر وأكثر لنعرف عنه أكثر وأكثر.

***

تبدأ حياة أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- يوم أن زوّج رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه من أم أيمن بركة الحبشية، حاضنة الرسول ﷺ ومولاته، فولدت له غلامًا سُرّ به رسول الله ﷺ، وهذا الغلام هو أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- فهو وأيمن أخوان لأم، نشأ أسامة في بيت النبوة، وصار الحبّ ابن الحبّ فأبوه زيد بن حارثة رضي الله عنه عتيق رسول الله ﷺ وحبّه، وقائده على السرايا، وأمه هي أم أيمن بركة الحبشية - رضي الله عنها-، وكانت جارية عند أم النبي ﷺ فأعتقتها، وهي أمه بعد أمه كما يقول عنها ﷺ.

فرح المسلمون بولادة أسامة، كما فرح به رسول الله ﷺ، ورباه كما ربّى أباه من قبل. وبلغ من حب رسول الله ﷺ لأسامة رضي الله عنه أنه ذات يوم وهو صغير تعثر وسقط على وجهه فشجت جبهته، وسال الدم على وجهه، فأمر النبي ﷺ عائشة - رضي الله عنها- أن تمسح عنه الدم، ولكنها لم تطق ذلك، فقام بنفسه يمسح عنه، ويضمة بين ذراعيه بحنان.

شب أسامة رضي الله عنه في المدينة يرقب نشأة الدولة الإسلامية الوليدة، وشب معه حب الجهاد وسمو الأخلاق، ولما لا وهو تربية بيت النبوة. بل إن الرسول ﷺ كان يوصي به خيراً ويقول: « **إن أسامة بن زيد من أحب الناس إلى، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاستوصوا به خيرا**»

---

(1) جُبِل: خُلِق وطُبِع.

عرف الصحابة هذه المكانة العالية، والمنزلة السامية لأسامة بن زيد - رضي الله عنهما- في قلب الرسول ﷺ؛ ولذلك فعندما سرقت امرأة من بني مخزوم خاف أهلها أن تقطع يدها فيعيّروا بها، وتشاوروا فيما بينهم، أيكلمون رسول الله ﷺ في شأنها؟ ولكن من يجرؤ؟ على ذلك؟

لم يجدوا إلا الحبّ ابن الحبّ أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-هو الذي يتشفع لها عند رسولَ الله ﷺ ، ويكلمه في أمرها، فقد تابت إلى الله تعالى. وكان أسامةفي ذلك الوقت شاب صغير السن، لا يقدر المواقف حق قدرها، ولا يعي الأمر الذي ذهب من أجله، وهنا يعلمه رسول الله ﷺ ، ويعلم الأمة معه درسًا لا يُنسي، فما أن خرجت الكلمات من فم أسامةرضي الله عنه حتى غضب رسول الله ﷺ وتغيّر وجهه، وقال له: « **أتشفع في حد من حدود الله الله يا أسامة؟؟**»

فأدرك أسامة رضي الله عنه خطأه، وطلب من رسول الله ﷺ العفووالمغفرة، وقال: استغفر لي يا رسول الله. ثم قام النبي ﷺ إلى المسجد وجمع الناس وخطبهم «**أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» ثم نزل من على المنبر بعد أن علّم الناس أنه لا شفاعة في الحدود، بل الكل أمام الله سواء.

***

عندما قامت معركة بدر الكبري كان أسامة صغيرًا، لا يستطيع حمل السلاح والقتال، ولكن قلبه كان معلقًا بحب الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك فعندما دعى داعي الجهاد إلى غزوة أحد بادر إلى حمل السلاح، والإنضام تحت لواء الجيش، ومعه بعض الصبيان كعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وأسيد بن ظهير، ولكن رسول الله ﷺ ردّهم عندما استعرض الجيش؛ لصغر أعمارهم. وعندما اجتمع أهل الشرك يريدون الإغارة على المدينة المنورة، حفر المسلمون الخندق حولها، وكان ممن حمل السلاح حينئذ أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-، وكانت هذه أولى مشاهده مع رسول الله ﷺ ، وما تخلف

بعد ذلك عن غزوة مع رسول الله ﷺ ، بل كان بجواره يقاتل معه، ويثبت مع من يثبت حين تشتد المعركة ويحمي الوطيس[1]، وليس أدل على ذلك من ثباته يوم حُنَيْن[2]، حين انهزم المسلمون أول الأمر، وكان ذلك درسًا من الله تعالى، لأنهم اغتروا بقوتهم وكثرتهم، وقال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلة. ولكن قوتهم لم تغن عنهم من الله شيئًا، فانهالت عليهم سهام الأعداء، فرجعوا منهزمين، وارتبك الجيش، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولكن رسول الله ﷺ ثبت، وثبت معه بعض الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد - رضي الله عنهم- حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم.

***

كان رسول الله ﷺ يرى في أسامة مشروع قائد عظيم، ولذلك فقد أعده لهذا الأمر، فكان يرسله على رأس السرايا، بل إن آخر بعث أرسله رسول الله ﷺ إلى الروم كان بقيادة أسامة رضي الله عنه.

وقدحدث في أحد هذه السرايا ما جعل أسامة يتلقي درسًا من رسول الله ﷺ لا ينساه طوال حياته.

يحكي أسامة بأن رسول الله ﷺ بعثهم إلى قوم، وكان منهم رجل شديد البأس والقتال، فكرّ هجم المسلمون وشدوا عليهم، فلما رأى ذلك الرجل أسامة رضي الله عنه ورجل آخر من الأنصار قادمين إليه بسيفيهما، قال لا إله إلا الله، فأمسك الأنصاري سيفه وكف عنه، أما أسامة رضي الله عنه فضربه بسيفه وقتله، فلما عادت السرية إلى المدينة المنورة، وعلم رسول الله ﷺ بتلك الواقعة عنّف[3] أسامة رضي الله عنه تعنيفًا شديدًا، وقال له: **يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!** فقال أسامة: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا من القتل. قال: **فمن لك بلا إله إلا الله.** فقال أسامة: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: **أفلا شققت[4] عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة. من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة..** فما زال يكررها حتى

---

(1) حمي الوطيس: جدت الحرب واشتدت.

(2) حُنَيْن: غزوة بين المسلمين وقبيلتا هوازن وثقيف في السنة الثامنة للهجرة.

(3) عنّف: لامه بشدة.

(4) أفلا شققت عن قلبه: هل بحثت عما بداخل قلبه، والمعنى لا تأخذ بظاهر العمل.

أسقط[1] في يد أسامة، وخشي على إيمانه، وتمنى لو لم يسلم إلا يومئذ، وأمره الرسول ﷺ أن يعتق رقبة، كفارة تتل الخطأ، وأعطى أسامة رضي الله عنه العهد لله تعالى ألا يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله، وذلك لأنه وعى الدرس جيداً.

***

في السنة الحادية عشرة للهجرة كان عُمْر أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- حوالي الثمانية عشر، وأراد رسول الله ﷺ أن يكسر أنف دولة الروم، ويذل كبريائها؛ لأنها وقفت تمنع وصول دعوة الإسلام وتبليغها إلى الناس، وظنت أن الأمر بيدها، وأنها على ما تشاء قادرة، فأمر رسول الله ﷺ بتجهيز جيش وبعثه إلى أرض فلسطين، حيث حدود دولة الروم، وأمّر على الجيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما-. وأمره أن يسير بالجيش حتى يدخل حدود الشام التابعة آنذاك لدولة الروم، حتى يعلم العرب الموالين لهم قدرة وقوة جيش الإسلام، وتعلم هي أنها ليست بعيدة عن سيوف المسلمين، فتكف عن غرورها وغطرستها[2]، وأوصاه قائلاً: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأسرع المسير تسبق الخبر.

وما أن علم البعض بإمْرة أسامة على الجيش حتى تهامسوا فيما بينهم، ربما اشفاقًا على الجيش من أمير لا زال دون العشرين، لا خبرة له بالمعارك، خاصة وأنها معركة ستكون مع أعتى دولة آنذاك. وربما لعدم إدراك الحكمة من هذا الأمر.

قال البعض: يولي علينا رسول الله ﷺ هذا الغلام وفي الجيش المهاجرين الأولين. وأثناء ذلك بدء رسول الله ﷺ يشتكي من مرضه الذي مات فيه وما أن بلغه تهامس الهامسين، وقول القائلين حتى غضب غضبًا شديداً، وخرج على الناس وقد عصب[3] رأسه من شدة المرض فصعد المنبر، وحمد الله وقال: «**أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ فو الله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله (قسم) إن كان للإمارة لخليق[4]، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وإن كان لأحب الناس إليّ، وإن هذا (يقصد أسامة) لمن أحب الناس إليّ بعده، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم**».

---

(1) أسقط في يده: ندم وتحيّر.
(2) غطرستها: تطاولها وتكبرها.
(3) عصّب رأسه: ربط رأسه وشدّها.
(4) لخليق: لجدير.

ثم نزل رسول الله ﷺ من على المنبر، وكان ذلك يوم السبت العاشر من ربيع الأول. . . عسكر الجيش خارج المدينة، وبدء المجاهدون ينضمون إليه، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا وانضم، أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وكذلك أكابر الأنصار أمثال قتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم - رضي الله عنهم- جميعًا، ولكن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ جعلت الجيش ينتظر قليلاً حتى يطمئن عليه.

وذهب قائد الجيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- يطمئن عليه فدخل عليه ونظر إليه، فوجده صامت لا يتكلم، بل يرفع يده إلى السماء ويضعها عليه فعرف أسامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يدعو له.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أكثر من مرة قبل موته بإنفاذ[1] جيش أسامة، وفي يوم الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول في العام الحادي عشر للهجرة انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ليكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

***

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أول ما فعله هو إرسال جيش أسامة، ولكن طائفة من المسلمين رأت أن يؤخر الخليفة إرسال هذا الجيش حتى تستقر أحوال العرب، خاصة بعد ارتداد معظمهم. . ذهب هؤلاء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكلموه في ذلك، لأنهم لا يأمنون على أهل المدنية من المرتدين أن يُغيروا[2] عليهم، وفي نفس الوقت فهم في أمان من الروم وبعد أن تهدأ الأمور، ويعود من ارتد إلى حديقة الإسلام وتستقر الأوضاع يبعث جيش أسامة. فلما سمع الصديق رضي الله عنه هذا الكلام، قال لهم: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت بعث أسامة، كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول: إنقذوا جيش أسامة؟!!! بعدها قال بعضهم لعمر بن

---

(1) إنفاذ: إرسال.

(2) يغيروا: يهجموا.

الخطاب رضي الله عنه، اذهب إلى أبي بكر، فإن أبى إلا إرسال الجيش، فأبلغه أن يولي رجلاً غير أسامة أقدم سنًا منه.

فلما سمع الصديق رضي الله عنه ذلك من عمر رضي الله عنه وثب[1] إليه، وأخذ بلحيته، وقال له والغضب يملأ وجهه: ثكلتك أمك[2] وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟!! والله لا يكون ذلك أبدًا. ولما عاد عمر رضي الله عنه إلى الناس سألوه: ما صنعت؟ فقال له: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، فقد لقيت ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

***

انطلق الجيش موليًا وجهه شَطْر[3] حدود دولة الروم حسبما أمر رسول الله ﷺ وخرج الصديق رضي الله عنه إلى المعسكر يودع الجيش ماشيًا على قدميه، وأسامة رضي الله عنه راكب على فرسه، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل. فقال أبو بكر: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.

وإنما فعل الصديق رضي الله عنه ذلك ليعلى من قدر قائد الجيش في أعين جنوده. ثم أوصاه قائلاً: امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به، ثم أغز حيث أمرك رسول الله ﷺ، ثم مال عليه وهمس في أذنه يستأذنه في ترك عمر بن الخطاب رضي الله عنه له، وقال له: إن رأيت أن تعينني بعمر استشيره وأستعين به فإنه ذو رأى، ومنا صح للإسلام فافعل.

فأذن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما- قائد الجيش لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالبقاء.. ويمضي الجيش في سبيل الله، ويعود بعد أن أدى مهمته، وألقى الرعب في قلوب الروم، وزعزع[4] هيبتها، وأوضح لضعاف الإيمان والمرتدين من العرب مدى قوة هذه الدولة وجيشها، فعادوا مرة أخرى إلى واحة الإيمان، وثبتوا على إسلامهم.

---

(1) وثب: نهض وقفز.

(2) ثكلتك أمك: فقدتك أمك، وهي تعني مجرد الدعاء.

(3) شَطْر: ناحية وتجاه.

(4) زعزع: حرك بشدة، والمعني هز هيبتها وأحرجها.

وعاد الجيش بلا ضحايا يحمل الغنائم، وقال عنه المسلمون يومها « **ما رأينا جيشاً أربى وأسلم من جيش أسامة**».

***

تولي أمور المسلمين بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يعرف مثل غيره من الصحابة ما لأسامة من الفضل، وكان يحبه لحب رسول الله ﷺ له، فقد حدث أن قسّم مالاً فأعطى أسامه رضي الله عنه أكثر مما أعطى ابنه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما-. فقال عبد الله: « **يا أبت، فرضت لأسامة بن زيد أكثر مما فرضت لي، فما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لك، وما كان له من الفضل ما لم يكن لي**». وإنما قال ذلكم عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- ، لأن أباه كان يعطي ويفضّل في العطاء وفق فضل الصحابة، وسبقهم في الإسلام، فخشي أن يكون مكانه متأخراً. ولكن أباه أجابه: « **إن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وهو كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك**».

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسر لرؤيته، ويهش لقدومه، ويلاقيه بالترحاب وهو يقول: أهلاً بأميرى.

وتمضي السنوات وتحدث الفتنة بين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما-، ويعتزلها أسامة رضي الله عنه ، ولاينضم لأي الفريقين، ولا لأي الجيشين، فهما طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وقد تعهد قبل ذلك يوم أن تلقي الدرس البليغ من رسول الله ﷺ ألا يقتل رجلاً يشهدأن لا إله إلا الله. وحين عاتبه على بن أبي طالب رضي الله عنه على ذلك، قال له: والله لو أدخلت يدك في فم تنِّين[1] لأدخلت يدي معها، ولكنك سمعت ما قاله رسول الله ﷺ لي حين قتلتَ ذلك الرجل الذي نطق بالشهادة.

واعتزل أسامة الفتنة، ولم يشهد شيئًا من هذه الحروب، ولم يشهر سيفه في وجه مسلم حتى لبي نداء ربه تعالى في العام الرابع والخمسين للهجرة في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه . ودفن بالبقيع[2] مع صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) التِّنِّين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد وأجنحة نسر، وذيل أفعى.

(2) البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي مدفن الصحابة، دفن فيها حوالي عشرة آلاف صحابي.

• **من فضائل أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - :**

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «**إن أسامة بن زيد لأحب الناس إليّ. أو من أحب الناس إلي، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم، فاستوصوا به خيراً**» رواه الشيخان

٢ - نظر عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يومًا إلى محمد بن أسامة بن زيد فقال : « لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه» رواه البخاري .

* * *